مجلة المجمع العلمي العربي

أيار وحزيران سنة ١٩٤٥ جمادى الأولى وجمادى الآخرة سنة ١٣٦٤

بقايا الفصاح

من ثلاث سنين [1] وضحت في هذه المجلة ما أريد ببقايا الفصاح وأشرت الى منزلة هذه البقايا في الأدب فقد كنت انتخبت طائفة من الألفاظ تدل على أمور اجتماعية أو اقتصادية أو مادية أو نفسية مستفيضة في العامة في دمشق ، وأصلها فصيح ، وفي مقالي هذا انتخب طائفةً من التراكيب خلفها لنا الماضي وهي لا تزال شائعةً في دمشق ، فهل يأتي يوم يستطيع فيه العرب ان يصلوا آخر لغتهم بأولها وأن يعرفوا تأريخ ألفاظ هذه اللغة والأطوار التي تقلبت فيها سواء في ذلك لغة العامة والخاصة ، فأي لذةٍ أعظم من ان نعرف اللغة التي كانت العرب تتكلم بها في المجالس من ألف سنةٍ أو اكثر .

فضّل أبو منصور الثعالبي في عصره شعراء الشام على شعراء سائر البلدان فكان في رأيه شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها في الجاهلية والإسلام والسبب في تبريز القوم قديماً وحديثاً على من سواهم في الشعر قربهم من خطط العرب ولا سيما أهل الحجاز وبعدهم عن بلاد العجم وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومدلهلتهم اياهم ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين فصاحة البداوة وحلاوة الحضارة ورزقوا ملوكاً وأمراء من آلِ حمدان وبني ورقاء هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب .

(١) الجزء الثالث والرابع من المجلد السابع عشر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا رأي الثعالبي في فصاحة شعراء عرب الشام من الف سنة بوجه التقريب وانما موضوعي في هذا المقال فصاحة العامة في دمشق فقد بقيت فيهم من أيام الثعالبي ومن الأيام التي جاءت قبل الثعالبي مفردات وتراكيب تجري بها ألسنتهم في يومنا هذا وهي فصيحة يستعملونها على نحو استعمالها من الف سنة مع يسير من التعديل ، ولقد ضاع من تأريخنا شيء كثير فلسنا نعرف صور المشهورين من رجالنا أو طراز ملابسهم وذهب عنا كثير من عاداتهم واجتماعاتهم وهذه ثلمة في تأريخنا وكأن الله تعالى عوّضنا من هذا كله أمراً آخر ، فليس بقليل ان نسمع في عصرنا هذا في العامة مفردات وتراكيب جرت بها ألسن الناس من الف سنة ولو سلمت ألسنتنا في خلال هذه الألف سنة من الفساد الناشئ عن مخالطة الأعاجم لكانت لغتنا العامة في عصرنا قريبة من لغة الأدب فما كنا نشعر بتباعد اللغتين على ان هذا التباعد قد يزول أثره بعض الشيء في مستقبل الأيام بفضل أمور كثيرة كالجرائد والمجلات والمدارس ودور الاذاعة وأمثالها واذا وازنا بين لغتنا العامة في هذا اليوم وبين لغتنا العامة من نصف قرن فانا ندرك الفرق العظيم بينهما فلا شك في ان العربية العامة تقرب كل يوم من لغة الأدب .

ليس بقليل ان نعيش في يومنا هذا مع العرب الذين حدّثنا عنهم أبو منصور الثعالبي فنستعمل في بعض أحاديثنا لغتهم وتشبيهاتهم واستعاراتهم وكناياتهم ومجازاتهم ونحو هذا كله ، فنشاركهم في تفكيرهم وحسهم وشعورهم حتى كأنا خلقنا في عصر واحد وأظلتنا سماء واحدة وجمعتنا تربة واحدة !

أرى قبل أن أذكر قليلاً من التراكيب التي أشرت اليها في صدر المقال أن أذكر مادّتين مفردتين .

من قول العامة في دمشق : من أين حوّشتهم ، وقد جاء في كتاب أنساب الأشراف للبلاذري في الكلام على أمر الشورى وبيعة عثمان ما يلي :

لما دفن عمر امسك أصحاب الشورى وأبو طلحة يومهم فلم يحدثوا شيئاً فلما أصبحوا جعل أبو طلحة يحوّشهم للمناظرة في دار المال ...

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فالتحويش في اللغة التجميع ، فالمادة العامية في دمشق حافظت على أصلها الفصيح المحافظة كلها ، الأ انها على الرغم من هذه المحافظة قد أصبح لها صباغ خاص فانا اذا قلنا في دمشق : من أين حوّشتهم ، رجعنا بالضمير في حوّشتهم الى جماعة قد يستنكر شيء من أخلاقهم أو طبائعهم وهذا الاستنكار غير وارد في عبارة البلاذري لأن الذين حوشهم أبو طلحة للمناظرة في دار المال هم سادة الناس فيهم : علي وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وهم المهاجرون الأولون .

وقد تستعمل مادة التحويش في لغتنا العامة بمعنى القطف فنقول : حوّشنا العنب أي قطفناه ، وحوّشنا المشمش أي جنيناه ، والمعنيان يدلان على التجميع ، فهذه المادة حافظت على معناها الأول الا انها طبعت بطابع خاص في عصرنا هذا فهي تتضمن الدلالة على شيء من الاستنكار .

ومن قولنا في دمشق : فلان لابد في هذه الأيام ، اي لا يتحرك اذا كان من اصحاب الحركات ولا يتكلم اذا كان من أرباب الكلام ولا يقدم على أمر اذا كان من أهل الإقدام وفي اللغة : لبد لبوداً ولَبداً أقام ولزِق ولبد ككتف من لا يبرح منزله ولا يطلب معاشاً ، فالمعنيان الفصيح والعامي اصلها واحد وقد وردت هذه المادة في عبارة في كتاب أنساب الأشراف في أمر عبد الله بن الزبير قال أبو بَرْزة الأسلمي : انكم معشر العرب كنتم على الحال التي علمتم من القلة والذلة والضلالة وان الله رفعكم بالاسلام وبمحمد عليه السلام حتى بلغتم ما ترون وان هذه الدنيا قد أفسدت ما بينكم ، أما الذي بالشام ، يعني مروان ، فانما يقاتل عن الدنيا ، وكذلك الذي بمكة ، يعني ابن الزبير ، وما يقاتل الذين تدعونهم قرّاءكم الأ على الدنيا ، وما نرى خير الناس الا عصابة لابدة ، خماص البطون من أموال الناس ، خفاف الظهور من دمائهم .

فاللبود في هذا المقام معناه مجرّد الإقامة والعامة في دمشق جعلت لهذه المادة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

على تطاول الأحقاب معنى أخصب ، فالبود في كلامها فيه شيء من عدم الحركة والسكلام وفيه شيء من الحذر والخوف وأمثال هذه الخصائص .

والآن أنتقل الى ذكر قليل من التراكيب فيها شيء من آثار اللغة الشعرية تجري بها ألسن العامة في دمشق ، فمن قول العامة ، لا بل من قول النساء خاصة : فلانة فكّت الحزن .. وذلك اذا مات زوجها أو احد من أهلها فحدّت ثم انقضت مدّة الحداد فعادت الى الزينة ، فاذا فكت الحزن استطاعت ان تخرج من الدار وأن تدخل الحمام أو تحضر مجلس غناء وغير ذلك وقد جاء في كتاب الف ليلة وليلة ، في الليلة السادسة والثلاثين بعد الأربعمائة ما يلي : ولم يزالوا به حتى دخل الحمام ودخلوا عليه وفكوا حزنه .

فلا يزال هذا التركيب في عصرنا في قوته على نحو ما كان عليه في عصر الف ليلة وليلة .

وقد تكثر الاستعارات والتشبيهات والمجازات في لغتنا العامة فاذا أردنا أن نشبه أحداً جميلاً بشيء قلنا : فلان مثل الصورة ، وقد جاء في الأغاني في أخبار الحكم بن عبدل ونسبه ما يلي : اقترض ابن عبدل مالاً من التجار وحلف لهم بالطلاق ثلاثاً أن يقضيهم المال عند طلوع الهلال فلما بقي من الشهر يومان قال أبياتاً من جملتها هذا البيت :

وفَدٍ يضاء غادة كلت كأنها صورة بين الصور !

فكأن ابن عبدل لا يزال في عصرنا هذا يسمع آثار لغته الشعرية في دمشق .

وكثيراً ما تستعمل العامة اذا أراد أحدهم ان يقول للآخر : انظر الى كذا ... هذا التركيب : اضرب عينك ، أي : انظر .. وقد قال صاحب الأغاني في أخبار محمد بن بشير ونسبه : كانت هند بنت أبي عيينة عند عبد الله بن حسن فلما مات أبوها جزعت عليه جزعاً شديداً ووجدت وجداً عظيماً فكلم عبد الله بن حسن محمد ابن بشر الخارجي أن يدخل اليها ويعزيها ويسلها عن أبيها فدخل فلما نظر اليها صاح بأعلى صوته :

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

فقومي اضربي عينيك ياهند لن تري أباً مثله تسمو اليه المفاخر !

فقوله : اضربي عينيك ، معناه : انظري ، وهو المعنى الذي لا تزال العامة تستعمله في دمشق .

ومن قول العامة في أحاديثها : بسط لسانه فيه ، أي طعن عليه وقد جاء في الأغاني في أخبار ابراهيم بن العباس ونسبه ما يلي ، كان محمد بن عبد الملك قد أضرى الواثق بإبراهيم بن العباس وكان ابراهيم يعاتبه على ذلك ويداريه ثم وقف الواثق على تحامله عليه فرفع يده عنه وأمر ان يقبل منه ما رفعه وردّه الى الحضرة مصوناً فلما أحسّ ابراهيم بذلك بسط لسانه في محمد وحسّن ما بينه وبين أبي دواد وهجا محمد بن عبد الملك هجاء كثيراً ...

فلغة العامة في هذا التركيب مثل لغة صاحب الأغاني .

واذا لذع أحد الناس قالت العامة : طار نومه وقد ورد هذا التعبير في شعر أبي العتاهية :

أرقت وطار عن عيني النعاس ونام الساهرون ولم يواسوا !

فلغة أبي العتاهية ، وهو من هو في الشعر ، قد بقي منها أثر في لغة العامة في دمشق .

ابتغيت بهذا القدر من الاستشهاد فإن الغاية التي أرمي اليها انما هي إحياء طائفة من بقايا الفصاح ، سواء أكانت هذه البقايا مفردات أو تراكيب ، والدلالة على فصاحة اللغة العامة في دمشق أو على قربها من الفصاحة .

ولعل لرأي الثعالبي بعض الصواب في هذا الباب .

شفيق جبري

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net